



بعض المؤرخين صنعوا من سرديات العثمانيين الأترك تاريخاً مقدساً

تناول بعض المؤرخين الأتراك والعرب السلاطين العثمانيين بصور فيها الكثير من المبالغة حتى أوصلوهم لدرجة القدسية ووضعوا حولهم هالات من العظمة والجلالة التي لا يمكن للقارئ النظر إلا من خلالها، فطغت الصورة المقدسة للسلطان عن ما كان يرتكبه من مخالفات عقديّة وشريعة بحجة أنه ظل الله في الأرض، وحامي ديار الإسلام وحامي الحرمين الشريفين وإلى غير ذلك من تلك الصيغ التبجيلية والتفخيمية، فعلى سبيل المثال لا الحصر: السلطان محمد الثاني، الذي أطلق عليه حاجي خليفة لقب "أبو الفتح و الفاتح"، وعندما سرد سيرته وحياته هو وغيره من المؤرخين، كانت عبارات التبجيل والتفخيم تعج بها صفحات كتبهم، فالمؤرخ البكري الصديقي هو من أعيان القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين يقول عن محمد الثاني: "كان من أجل ملوك آل عثمان، وأكثرهم جهاداً للكفرة، أهل الطغيان. كان متوكلاً على الله سبحانه وتعالى، وهو أساس ملك هذه الدولة العثمانية، ورتب قوانينها، والمشي عليها إلى الآن.. وقد فتح قسطنطينية الكبرى.. وصلى في أكبر كنائس النصرى الجمعة، وهي أيا صوفية. وهي تسامي قباب السماء..". ويقول آخر عنه: "كان أعظم أملة هو تحقيق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم في فتح القسطنطينية وجعلها عاصمة لدولته.."، وإلى غير ذلك من أن محمد الثاني هو المقصود بالحديث الشريف. بينما نجد أن المؤرخ التركي خليل اينالجيك يقول بكل واقعية ومصداقية: "تمكن الشاب محمداً الثاني ومستشاريه.. من إنجاز خططهم لأجل مزيد من التوسع. لقد كان الهدف الرئيسي لمحمد الثاني إحياء دولة جدّه بايزيد الأول... إلا أن محمد الثاني كان يختلف عن جدّه في أن أراد خطوته الأولى باتجاه القسطنطينية، لأنه أدرك أن هذه الخطوة يمكن أن تؤمن له المكانة اللائقة والسمعة اللازمة لإنشاء إمبراطورية". ومن هذا النص يمكن أن يستوعب القارئ أن الهدف من فتح القسطنطينية هدف جيوسياسي ولم يكن هدفاً دينياً كما صورته الكثير من المؤرخين الذين صبغوا ذلك التوسع من الناحية الدينية والعاطفية.

ومع ما اكتسبه محمد الثاني من شهرة ومكانة في تاريخ الدولة العثمانية إلا أنه لم يخل من بعض الانحرافات البدعية والتي فيها مخالفة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك أنه أمر ببناء مسجد وقبة على قبر أبي أيوب الأنصاري الصحابي المدفون عند أسوار القسطنطينية مع التحفظ على اكتشاف قبره وصحة ذلك لدى المؤرخين، ولكن الأمر ببناء مسجد على القبر أيّ كان تعد مخالفة وبدعة في دين الله.

انتقادات وتصحيحات: النظرة الواقعية لخليل اينالجيك.

ومن جهة أخرى من خلال تتبع الطبقة السابعة من علماء الدولة العثمانية في عهده والذين نالهم منه حظوة سوف نجد أن عدد غير قليل منهم قد سلك مسلك التصوف بطرقها المختلفة بل بعضهم زعماء لطرقها ويذكر عصام الدين أحمد طاشكبري زاده في كتابه "الشقائق النعمانية": "بعضاً من أتباع فضل الله التبريزي رئيس الطائفة الحروفية الضالة نال خدمة السلطان محمد خان، وأظهر من معارفه المزخرقة حتى مال السلطان محمد خان، وآواه مع اتباعه في دار السعادة، واغتم لذلك الوزير محمود باشا غاية الاغتمام، ولم يقدر أن يتكلم في حقهم شيئاً خوفاً من السلطان". ويفهم من ذلك أن محمد الثاني كان يكن احتراماً لتلك الفئة المنحرفة من المتصوف، بل يقضي الوقت في مسامرتهم بدرجة كبيرة مما يرسم لنا علامة استفهام كبيرة في السلطان الفاتح، الذي لمعت صورته بشكل كبير من المؤرخين حتى بلغت إلى درجة القدسية.

(1) حاجي خليفة: فذلّة أقوال الأخيار في علم التاريخ والأخبار، تحقيق: سيد محمد سيد(أنقرة: مؤسسة العالي آتاتورك للثقافة واللغات والتاريخ، 2009م)

(2) طلال الطريفي: العثمانيون التاريخ الممنوع، ط2 (الرياض: دار ائتلاف، للنشر، 2020م)

(3) عصام الدين أحمد طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تحقيق: سيد محمد طباطبائي بهبهاني(طهران: مركز الوثائق والمكتبة والمتحف، 2010م)

(4) خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، ترجمة: محمد الأرتناؤوط(بيروت: دار المدار الإسلامي، 2002م)

(5) محمد بن أبي السرور البكري الصديقي: المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تحقيق: ليلى الصباغ(دمشق: دار البشائر، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1995م).

(6) نجم الدين بيرقدار: العثمانيون حضارة وقانون(بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2014م)